الدّراسات البلاغية العربيّة و تقييم الكتابة الأدبية

Arabic Rhetorical Studies and Literary Writing Evaluation

د. علي منصوري*

تاريخ الإرسال: 2021/11/01	تاريخ القبول: 2021/11/18	تاريخ النشر: 2022/05/01

الملخص:

لقد صار من كبريات المسائل في قضايا تاريخ البلاغة العربية والدراسات المتواصلة التي حدثت فيها سيما في العصر الحديث مسألة قيمة هذه البلاغة و قيمة تأصيلاتها، والأهم من ذلك الهدف العلمي والذوقي الذي يفضي إليه هذا الجزء المهم من الصرح اللغوي والأدبي والنقدي الذي اشترك في تشييده عدد هائل من العلماء ، فضلا عن الهدف التعليمي الملازم للمناهج الدراسية في اللغة العربية.

ولذلك فإننا نحول هذه الورقة البحثية نقاشا تقييميا وكرونولوجيا في آن واحد للبلاغة العربية في مختلف أشكالها التي ظهرت عليها تبعا لاختلاف أصحابها، وأهمية الدافع اللغوي الذي امتصت البلاغة العربية أكثر أطروحاتها منه، والتي فتحت المجال واسعا للبحث عن الأسس اللغوية للبحث البلاغي متصادمة في الظاهر مع كافة المشارب التي دخلت مجال البحث البلاغي كالنقد و الفلسفة و علوم التأويل و النظريات الثقافية.

الكلمات المفتاحية: دراسات بلاغية، بلاغة عربية، تاريخ البحث البلاغي، رؤية في البلاغة العربية، التوجه اللغوي و البلاغي.

المؤلف المرسل: منصوري علي alimansouri478@yahoo.fr

* **جامعة علي لونيسي - البليدة 2 – الجزائر. alimansouri478@yahoo.fr**

Abstract:

One of the major issues in the cases of the history of Arabic rhetoric and the continuous studies that took place, especially in the modern era, is the question of the value of this rhetoric and the value of its roots, and most importantly the scientific and tasteful goal that this important part of the linguistic, literary and critical edifice leads to. A huge number of scholars participated in constructing this topic, as well as the educational objective that is inherent in the Arabic language curricula. Therefore, in this research paper we are trying to make an evaluative and chronological discussion at the same time for the Arabic rhetoric in its various forms that appeared on it according to its different authors. The importance of the linguistic motive that the Arabic rhetoric absorbed most of its theses from, which opened a wide field of searching in the linguistic foundations of rhetorical research that clashes apparently with all the disciplines that entered it, such as criticism, philosophy, interpretation sciences, and cultural theories.

***Key words**: rhetorical studies, Arabic rhetoric, history of rhetorical research, vision in Arabic rhetoric, linguistic orientation and rhetoric.*

*** *** ***

1. مقدمة:

يعدّ التطوّر التاريخي للدراسات البلاغية العربيّة امتدادا معرفيا متداخل المنهجيات، ذلك أنّ البلاغة العربيّة عرفت في مسيرتها وفود عدد هائلٍ من البحوث التي تناولت كثيرا من النّماذج الأدبيّة: المنثور منها والمنظوم، أقامها ثلة من الباحثين في هذا الشأن، ونهجوا مناهج شتّى في دراستها وتحليلها واستنباط جماليات النّص الأدبي استنادا إلى التصانيف والتقاسيم البلاغيّة المختلفة فيها؛ ومقصدنا بالمنهجيات وتداخلها المعرفي تلك الطّرق التّحليليّة البلاغيّة التي تعتمد نفس المنطلقات والمفاهيم، وتقوم على أصول بلاغة عربيةٍ واحدةٍ أصيلةٍ، ليس بينها بون واسع يجعلها مفترقة التوجّهات، بل لها من التقارب ما يجمعها، ومن التوازي ما يجعلها متناظرة معرفيا.

تطورت هذه المناهج بتطوّر البلاغة العربيّة وتوسّعها على مرّ الدّهور وباستمراريّة الحقب التاريخية، التي تميّز حقبة عن أخرى بجملة من الخصائص قد توجد في زمن دون غيره، وقد تغفو لتطفو بثوب جديد في فترات تاريخية أخرى، كما هو الشأن في تطوّر الأدب

الّذي تتناوله البلاغة بالتّحليل؛ ولذلك نجد المعايير التحكيمية للدراسات البلاغيّة تختلف باختلاف أهميّة الموضوعات المتناولة، والأثر الذي تتركه في مجال معرفي دون آخر، مما يخلق تمايزا قيميا من حيث الكيفية في التطبيق، ومن حيث الكمية في التجديد المعرفي التنظيري ومدى التكامل الحاصل بينهما؛ فاختلافها لا يعدو أن يمثّل تباينا جزئيا في التبويب والترتيب، والنوع الأدبي المدروس، شكلُه وزمانُه، وكذا الاصطلاح والتسميات، ومنظور كلّ دارس لمواطن الفصاحة والجمال والإبداع عند الأديب أو في النّص عينه، وغيرها من الفروقات.

ومن هذا المنطلق كان لابدّ من توضيح المسار التاريخي للدراسات البلاغية، من خلال بيان أهم مراحلها، وقيمة كل مرحلة فيها من منظور التجديد المعرفي فيها نظريا وتطبيقيا، وكيف ينظر الأدب الحديث للبلاغة اليوم؟، وهل هناك امتداد طبيعي بين البلاغة العربية التقليدية والبلاغة العربية الحديثة؟

فالهدف الذي نتوخاه من هذه الورقة البحثية هو بيان المسار الكلي للبلاغة العربيّة ومساقاتها القبلية والآنية، إضافة إلى بيان مدى التفاضل أو التكامل بينها وبين البلاغات الجديدة، ذلك أنّ العلم هو عبارة عن حلقات متّصلة قد تفقد فيها حلقة من الحلقات فتظهر منفصلة عما قبلها وعمّا يليها، وي كأنّها علم قائم بذاته، لكنّ البحث عن المفقود هو في حدّ ذاته تثمين لما قبله وما بعده، وربط لسلسلة العلم المتواصلة عبر حقبها الزمنيّة، وكذلك هو البحث في الدراسات البلاغيّة العربيّة.

واقتضى منا هذا البحث تقسيمه إلى عناصر أساسيّة، تمثلت ركيزته الأولى في كيفية نشأة الدراسات البلاغيّة العربيّة ومراحل تطوّرها، لتُخْتَتَم بركيزة ثانية مثلتها البلاغة العربية الحديثة بين التجديد والتقليد.

2. نشأة الدّراسات البلاغيّة العربيّة ومراحل تطوّرها

1.2 نشأة الدّراسات البلاغية العربية:

كانت الإرهاصات الأولى لنشأة الدّراسات البلاغيّة مرتبطة بالفصاحة، تمثّلتها سوق عكاظ في العصر الجاهلي من خلال القصائد التي كانوا يلقونها أسبوعيا، وينتقون منها

الأجمل من حيث جودة اللفظ وجزالته، وحسن سبك المعنى بيانا وتصويرا، وخير ما تمثّلته هذه الحقبة المعلّقات السّبع من الشّعر لحسن نظمها وكمال لغتها، وبديع التصوير اللفظي والمعنوي فيها.

أمّا في صدر الإسلام فقد جاء القرآن معجزا لبلاغة البلغاء، وفصاحة المتكلمين، فقال تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ الآية 195 من سورة الشّعراء؛ وقال تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الآية 28 من سورة الزمر، وقد تحدّى الله عزّ وجلّ فصحاء العرب جميعا وغيرهم على أن يأتوا بمثل هذا القرآن في البيان وحسن النظم، والتصوير والبلاغة والفصاحة، فقال تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ الآية 88 من سورة الإسراء؛ فكان القرآن هو الكلام الّذي أعجز كلَّ خطيب مُفَوَّهٍ، وأديب مصقع مقتدر وشاعر مفلق فصيح عن مضاهاته والإتيان بمثله.

ويذكر "شوقي ضيف" في كتابه "البلاغة تطور وتاريخ" قوّة الحجاج والجدل عند العرب الأوائل مستدلّا بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ الآية 19 من سورة الأحزاب، وقوله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ الآية 58 من سورة الزخرف، وهذا دليل على ما حذقوه من حسن البيان والقدرة على حوك الكلام وصونه عما قد يفسده أو يهجّنه، إضافة إلى الملاحظات البيانية التي كانوا يسوقونها باعتبارها أصلا للبلاغة العربية تتناثر فيها التشبيهات والاستعارات والمقابلات والجناس، مما يثبت أنهم كانوا على عناية واسعة بإحسان الكلام والتفنن في معارضه البليغة.[1]

وكما أنّ العلوم التي استُفيدت من القرآن الكريم كثيرة بقي أوائل العرب يدركون أحكامه التي حكم بها وما يقاس عليها، وأخباره وما ينبني منها، وأوامره ونواهيه وما يكون منها، ومعانيه وحِكَمَهُ، وإعجازه وفصاحته وبيانه... ويعرفون بواعث هذه الأمور وأسبابها التي لمستها فطرتهم ويحسّون أسرارها الكبرى، كلّ هذا كان مستقرّاً في صدورهم دون اصطلاح عليها أو تسميات لها.

ولذا نجد أنّ من «عاشوا في عصرها الأوّل يدركون بفطرتهم اللّغويّة الصّافية عناصر هذا الإعجاز البياني ومقوّماته دون حاجة إلى تعيينها بأسمائها الاصطلاحيّة»[2]، وكان ذلك مصدر التفكير البلاغي الأوّل، ودافعا لفكّ أسرار الإعجاز؛ فالحقيقةُ الكبرى

التي ينبغي التّفطّن إليها أنّ علوم البلاغة هي مقاييس الجمال البلاغي أو بعبارة أخرى صورة التعبير الأدبي مستمدّة من النّص القرآني ثمّ من روائع النصوص الأدبيّة.[3]

ولذا نجد أنّ البيان أوّل مداخل البلاغة باعتباره شرطا عامّا يوجب عدم الغموض والوضوح التامّ في تصوير المعاني لدى السامع، والدّليل على هذا ما ذكره "الجاحظ" في باب البيان فقال: «وكلّما كانت الدّلالة أوضح وأفصح، وكانت الإشارة أبْيَن وأنور، كان أنفع وأنجع. والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان الذي سمعتَ الله عزّ وجلّ يمدحه، ويدعو إليه ويحثّ عليه، وبذلك نطق القرآن، وبذلك تفاخرت العرب، وتفاضلت أصناف العجم».[4]

«إذن فالبلاغة العربيّة القديمة قد تأسست، مثلها مثل باقي علوم الثّقافة واللّغة العربيّة خدمةً للكتاب المقدّس، وفي سبيل فهمه الفهم الصّحيح، وبيان إعجازه، ومن هنا كان اهتمام البلاغة العربيّة موجّها ومنذ البداية إلى الشّكل - الصّيغة - أكثر مما كان موجّهاً إلى المحتوى، كان الاهتمام موجّها إلى طرق القول وفنونها أكثر من الاهتمام بمحتوى القول».[5]

وإذا أردنا التّفصيل بشيء من البيان لمعنى البلاغة، فنجد أنّ الأصول الأولى للكلمة مأخوذة من الفعل الثلاثي "بَ.لَ.غَ"، وتعني الوصول إلى الشيء، والبُلْغَةُ ما يُتَبَلَّغُ به من عَيشٍ، وكذلك البلاغة فهي التي يُمْدَحُ بها الفصيح اللّسان، لأنّه يبلغ بها ما يُريده كِفاية.[6]

ويأتي معنى البلاغة عند أهل المعاني على زوج من المعاني،«فالأول بلاغة الكلام، وتسمّى بالبراعة والبيان والفصاحة أيضا، وهي مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته، وثانيهما بلاغة المتكلّم، وهي ملكة يُقتَدر بها على تأليف كلام بليغ، فالبلاغة بمعنييها أخصّ مطلقا من الفصاحة، فكلّ بليغ كلاما كان أو متكلما فصيح ولا عكس، وقيل البليغ: الرصين الجزل وهو أعلاها، والفصيح القريب السّهل وهو أوسطها، والجائز الطَّلْقُ الرَّسْل وهو أدناها مرتبة».[7]

ومن هذا المنطلق كانت البلاغة قبل كلّ شيء فنّاً من الفنون، يعتمد على صفاء الاستعداد الفطري ودقّة إدراك الجمال، وتبين الفروق الخفيّة بين صنوف الأساليب، وللمرانة يدٌ لا تُجحد في تكوين الذّوق الفنّي، وتنشيط المواهب الفاترة، وذلك بقراءة

طرائف الأدب، والتملؤ من نميره الفيّاض، ونقد الآثار الأدبيّة والموازنة بينها، والحكم بالحسن أو القبح لما أنتجته قرائح وعقول الأدباء من أذواق وفنون.[8]

لهذا فإنّ وظيفة البلاغة ودورها بمباحثها النّظريّة والتّطبيقيّة أنّها تسعى دوما منذ نشأتها إلى إنزال النّص الأدبي منزلته، وبيان قيمته ومكانته، وهي بذلك تفتح المجال للحكم على صاحبه وطبقته بين معاشر الأدباء المبرزين اللّذين يُقرَأُ لهم وأُوتوا موهبة الكتابة، وجعل الله في لسانهم وأقلامهم متعة للسامعين المتذوّقين، وآتاهم فضيلة البيان والكلام الّذي جعله تُرجُماناً لخواطر النّفوس ومقرِّبا للعلوم، وكاشفا عن حقائق الأشياء.

والّذي لولاه - كما قال عبد القاهر الجرجاني - : «لبقيت القلوب مقفلة على ودائعها والمعاني مسجونة في مواضعها، ولصارت القرائح عن تصرفها معقوله، والأذهان عن سلطانها معزولة ولما عُرِف كفر من إيمانٍ، وإساءةٍ من إحسانٍ، ولما ظهر فرقٌ بين مدح وتزيين، وذمّ وتهجين، ثمّ إنّ الوصف الخاصّ به والمعنى المثبت لنسبه أنّه يُريك المعلومات بأوصافها التي وجدها العلم عليها، ويقرّر كيفياتها التي تتناولها المعرفة إذا سمت إليها...ومن هنا يتبيّن للمُحَصِّل ويتقرّر في نفس المتأمّلِ، كيف ينبغي أن يحكم في تفاضل الأقوال، إذا أراد أن يقسم بينها حظوظها من الاستحسان، ويعدل القسمة بصائب القسطاس والميزان».[9]

ومن ثَمَّ فإنّ الكلام يجد مراتبه عند من له مران عليه ومراس، ومن له إلمام بأساليب العرب وكلامها وضروب القول في ألوان التّعبير، استنادا للمُثُل البلاغيّة والنّماذج التي تُحتذى في روعة بيانها لبعض المعاني على الوجه الذي وردت عليه.

ومن هذا السعي عرفت المكتبة العربيّة الأصيلة تلك المؤلّفات والدّراسات العربيّة الأولى المعروفة وكذا الجهود التي تعدّ مصادرا أولى للبلاغة والبحث البلاغي والتي بدأت في الظهور منذ القرن الثالث الهجري، وأسماء مشهورة هي أعلام هذا الفنّ بنت بجهودها المتظافرة والمتواصلة هذا البناء العظيم وهذا المنهج الواسع في الرؤية النقدية للنصوص الأدبية، ففي القرنين الثاني والثالث الهجري برز في ساحة البحث البلاغي أبو عبيدة معمر بن المثنّى (ت209هـ) ويتمثّل جهده في البلاغة من خلال مصَنَّفِه المسمّى "مجاز القرآن"؛ وأبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت 255هـ)، وينطوي كتابه "البيان والتبيين" على ما

يُعَدُّ أصولا ممتازة لعلم البلاغة؛ ليختم القرن الثالث بمؤلف أبو العباس عبد الله بن المعتز بن المتوكّل (ت 296ه)، تلميذ المبرّد وثعلب وألّف كتاب "البديع".[10]

ونجد في القرن الرابع الهجري أنّ من نهض بأعباء الدّرس البلاغي ثلاثة أعلام أيضا، وهم: قدامة بن جعفر (ت 337ه) وهو مؤلّف كتاب نقد الشّعر، وأبو الحسن علي بن عبد العزيز الشهير بالقاضي الجرجاني (ت 366ه) ألف في نقد الشّعر كتاب الوساطة بين المتنبّي وخصومه، وأبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري (ت 395ه) وهو مؤلّف كتاب الصّناعتين؛ وفي أواخر القرن الرابع وبداية القرن الخامس يصادفنا أربعة علماء كان لهم فضل كبير على الدّرس البلاغي وهؤلاء هم: القاضي أبو بكر بن الطيّب الباقلاني (ت 403ه) وهو مؤلّف كتاب "إعجاز القرآن"، وأبو الحسن محمد بن الطاهر المعروف بالشريف الرضي (ت 406ه) ألف فيما ينتسب إلى العلوم البلاغية كتابين رائعين، تلخيص البيان عن مجازات القرآن، والمجازات النبويّة، وأبو علي الحسن بن رشيق القيرواني (ت 456ه) وهو صاحب كتاب العمدة، والإمام عبد القاهر الجرجاني (ت 471ه) وهو صاحب دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة؛ وفي القرن السابع تقدّم لخدمة البلاغة العربيّة عالمان كبيران وهما: أبو يعقوب يوسف السكاكي (ت 626ه) صاحب المفتاح، وضياء الدين بن الأثير الجزري (ت 637ه)؛ وفي القرن الثامن ظهر الإمام جلال الدين محمد بن عبد الرحمن المعروف بالخطيب القزويني (ت 739ه) صاحب التلخيص على المفتاح الّذي وضعه قبله السكّاكي.[11]

فكلّ طائفة من هؤلاء العلماء ساهم في إرساء قواعد العلوم التي تخدم علوم القرآن، فنجد منهم الأصوليين والفقهاء كالشافعي (ت204ه) في كتابه الأم، والمفسرين، والنحاة، والمتكلمين وغيرهم كثير؛ كلّ هؤلاء ساهموا في نشأة علوم البلاغة العربيّة من خلال ما ألّفوه وغايتهم خدمة القرآن الكريم، ذلك أنّ تأثيرهم في نشأة البلاغة لم يكن مقصدا لديهم بل كان عرضا اقتضته الدّراسات القرآنية أن تتناوله ولو بالإيجاز.

ومع ظهور هذه البلاغة الأصيلة بدأ النّقاد العرب وبالذّات بعد القرن الثالث الهجري عصر التأليف والبوادر الأولى للمباحث البلاغية بدئوا ينشؤون صرحها الواسع، وأصبح متعارفا أنّا العلم الّذي يكشف معدن القول ويقيّم النّص الأدبي من شعر ونثر ويضع الشاعر في طبقته والأديب في منزلته وصار من عيون المعارف العربيّة، فأبو هلال

العسكري يقول في هذا الصدد: «ولهذا العلم بعدُ ذلك فضائلَ مشهورة، ومناقب معروفة، منها أنّ صاحب العربيّة إذا أخلّ بطلبه....عفى على جميع محاسنه، وعمي عن سائر فضائله، لأنّه إذا لم يفرّق بين كلام جيّد وآخر رديء، ولفظ حسن وآخر قبيح، وشعرٍ بارد، بان جهله وظهر نقصه».[12]

إذن: فلا يخفى على أحد أنّ البلاغة نشأت في رحم الدّراسات النقدية بدءً بمؤلف ابن سلّام الجمحي (ت232ه) في كتابه "طبقات الشعراء"، ومرورا بمؤلفات ابن طباطبا، وقدامة بن جعفر والآمدي، وابن قتيبة الّذي فرّق بين الشّعر والشّعراء وما يُستَحسن من أخبارهم ويستجاد من شعرهم، وما آخذهم عليه العلماء من الغلط والخطأ في ألفاظهم أو معانيهم، وكذلك ما أخبر به عن أقسام الشّعر وطبقاته، وعن الوجوه التي يختار الشّعر عليها ويستحسن لها، ويقع به - أي الشعر- الاحتجاج في الغريب وفي النّحو؛[13] فكلّ هذه الأعمال كانت تتناول المسائل البلاغية والجمالية وتمهّد لظهور علم البلاغة.[14]

وإن كان مفهوم البلاغة اليوم غير مفهوم النّقد، فإنّ العلاقة التي ربطت هذين المجالين قديما علاقة لا ينكرها أحد، فيمكن لنا القول أنّ النّقد أخذ بدائه العرب الأوائل دون شعور منهم إلى التقعيد أين كانت البلاغة في انتظارهم، ويمكن لنا القول أيضا أنّ البلاغة كانت تتحكّم في العمليات النقدية الأولى وكانت في خلفيتها ملازمة لها، فبلاغة الشاعر الأولى غير الاصطلاحيّة هي التي تجعل شعر غيره في ميزان النّقد حسنا أو قبيحا أو دون الذوق الراقي الّذي كان العرب يعيشونه، بل كان النّقاد بعد ذلك يعتمدون المقاييس البلاغيّة وتكلّموا فيها وأسهموا في بنائها.

«فهؤلاء النّقاد أثاروا في محاضراتهم وبحوثهم وكتبهم كثيرا من بحوث البلاغة، بل إنّ كتاب الصناعتين وكتاب أسرار الفصاحة وكتاب العمدة أقرب ما يكون إلى كتب البلاغة منها إلى كتب النّقد، وفي القرن الرابع اتجه علماء الأدب إلى الكتابة في الأدب والنّقد، ثمّ مزجوا بحوث النّقد والأدب بالبيان، ثمّ أفادوا من دراسات النقد فائدة انتقلت بهم في أواخر هذا القرن إلى بحوث البلاغة نفسها».[15]

ونلتمس كمال التأليف البلاغي في الموروث العربي عند أبي يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي (ت626ه)، في كتابه "مفتاح العلوم"، حيث جمع فيه آراء من سبقوه، ولخّص وزاد وأفاد، وقد ذكر في مقدّمة كتابه أنّ العلوم متداخلة متكاملة ومنزلة

الخائض فيها بقدر ما يجيده من فنون وعلوم، فقال: «إنّ نوع الأدب نوع يتفاوت كثرة شعب وقلة، وصعوبة فنون وسهولة، وتباعد طرفين وتدانيا، بحسب حظّ متولّيه من سائر العلوم كمالا ونقصانا، وكفاء منزلته هنالك ارتفاعا وانحطاطا، وقدر مجاله فيها سعة وضيقا».[16] وباعتبار أنّ السكاكي جمع فأوفى، وشرح فاستفاض من غير نقصان، فقد أجمع غالبية الباحثين على أنّ من ألّف بعده في البلاغة ما زاد على ذلك شيئا إلا ما كان تلخيصا أو توضيحا تسهيلا لتعلم هذا الفن من العلوم.

إنّ المقياس الّذي انبرت عليه البلاغة العربيّة تأصيلا لنشأتها لم يكن واحدا، وإنّما نتلمّسه في بطون أمّهات الكتب، من عناية فائقة بألفاظ اللغة واختيار الأنسب منها للمقام حتّى يقع القصد كما هو المراد، ويتجّلى هذا في مسميات كتبهم كالبيان والتبيين للجاحظ، وسحر البلاغة وسرّ البراعة للثعالبي، وشرح الكافية البديعية في علوم البلاغة، ومحاسن البديع لصفي الدّين الحلّي، وأساس البلاغة للزمخشري، ونهج البلاغة لعلي بن أبي طالب، ودلائل الإعجاز للجرجاني وغيرها، فهذه الألفاظ كلّها انتقيت بعناية لتحمل دلالة خاصّة نستقيها من إطارها السّياقي ذاته.

فالبلاغة بدورها نشأت من أجل الأدب وإليه تعود، وهو الأصل لها، وروحها التي تسري في عروقها شواهد وأمثلة، ومنه – كما يعلم كلّ مطّلع – خرجت المباحث البلاغيّة إلى الوجود أمام ما يقابلها من الأساليب والوجوه في الكلام، ومن هذا المنطلق كانت في نشأتها متعدّدة الطوائف، متشعّبة الفروع، متناثرة المناهج في بطون أمّهات الكتب، ساهمت في صنع تاريخ بلاغي خالص، فكان لكلّ طائفة اتّجاهها المعيّن، ومشربها الخاصّ، ولم تكن هذه الاتجاهات متضاربة متنافرة بقدر ما كانت متظافرة متآخية، تسير في قنوات مختلفة، ولكنّها في النّهاية تصبّ في مجرى واحد.[17]

«ولم تنشأ تلك المباحث البلاغية المشار إليها من فراغ، في أيّ لغة من اللّغات، وإنما تبلورت بعد تأمّل طويل، وفحص عميق لأساليب التعبير في الأعمال الأدبيّة المختلفة، ومن ثمّ نراها تتخذ ابتداء طابع الوصف لظواهر التعبير القولي في نص معيّن، ثمّ ما تلبث أن تتجرّد من هذا الطابع، فتتحوّل إلى ما يشبه الأصول الثابتة والمعايير المستقرّة، التي ينبغي للمتكلّم أن يتوخّاها ويحرص عليها، كيما يحقّق لكلامه الأثر المنشود».[18]

فالبلاغة وليدة الكلام العربي، احتكّت به منذ أن عرف النّاس نقد النتاج الأدبي، فترعرعت في أوساط الأدباء والشّعراء وأصحاب الذوق، وانتعشت بعد نزول القرآن الكريم وساهمت في بعثها الفطرة العربيّة النقّادة والباحثة عن كلّ شيء جميل في صورة أنيقة، «ولهذا ظلّت البلاغة في دور نشأتها على الإجمال عربيّة تستمدّ عناصر مقوّماتها من الثقافة العربيّة وما يتّصل بها، وإذا كان قد تسرّب إليها بعض عناصر بلاغية أجنبيّة من بلاغة الهند والفرس واليونان، فإنّ ذلك كان في الأدوار التي تلت دور نشأتها».[19]

وبناءً على ما سبق من القول فإننا نلاحظ أنّ نشأة علوم البلاغة لم يكن هدفا في حدّ ذاته وإنما هو عارض من عوارض الغايات الكبرى لحفظ لغة القرآن الكريم، كذلك لم تنشأ البلاغة منفردة بل تمخضت من رحم العلوم الأخرى كالأدب والنّقد والفقه والفلسفة والتفسير وغيرها من العلوم التي تقاطعت معها في مسائل عديدة.

2.2 مراحل تطور الدّراسات البلاغيّة العربيّة:

إنّ الرؤية البلاغية تطوّرت مع نمو الفطرة العربيّة، وتطوّر الأنواع الأدبيّة على خلاف ما كان عليه الأدب في الماضي، ذلك الأدب الّذي نشأت البلاغة تحت ظلاله منذ عرف العرب ظهور أوّليّات التفكير النقدي والحكم على تفاضل الأقوال والأشعار، بل صار للأدب أنواع وأشكال تحاكي العصر في موضوعاتها وألفاظها وصُورها وأبعادها الفنّيّة، وأصبح للشعر أوزان مستحدثة، وتعابير مبتكرة، وللنثر ألوان غير التي كانت في العهود الماضية.

«وهذا التّطوّر الواسع لأَدبِنا في شكله ومضمونه وأساليبه حَرِيٌّ أن يُقابله تطوّر في بلاغتنا بحيث تصوّر فنوننا الشّعرية والنثرية وأساليبها المتنوّعة، وبحيث تكون صورة صادقة لحياتنا الأدبية الحديثة»،[20] فالبلاغة تتأثر بالأدب الذي أنشأت من أجله والفكر الّذي جعله على هذا المستوى الفنّي، و«هذه البلاغة مَدْعُوّة اليوم أكثر من أيّ وقت مضى لا إلى مسايرة التطور الفكري والفنّي الّذي يجري في العلم فحسب، بل إلى إثبات أصالتها كنظرة إنسانيّة صائبة فيما فرضته للكون والحياة في الماضي، وفيما تفرضه لهما في المستقبل».[21]

ولذلك نجد أنّ البلاغة العربيّة مرّت في نشأتها بعدّة مراحل ساهمت في تطوّر موضوعاتها، وتنوع أساليب التحليل فيها، فالّذي يستعرض تاريخ البلاغة يجد أنّها جاءت

من أجل الأدب والكلمة، ومن أجل الشّعر، ومن أجل المفاضلة فيهما كما أنّها جاءت في أوّل أمرها وميلادها لبيان محاسن الكلام وأسرار الفصاحة وسحر القول؛ ثمّ ما لبثت أنْ استُحدِثت لبيان مناهج التحليل فيها، والطّرق التي تناول بها أصحابها المسائل التي تكتنفها، ومن خلال تحديد المنهجيات المتّبعة استطعنا تقسيم مراحل البلاغة في عمومها إلى ثلاثة أقسام وجاء بيانها كالتالي:

أولا- مرحلة التأسيس:

بدأت هذه المرحلة بتدوين الملاحظات المختلفة على فصاحة الكلام وبلاغته، وكانت مدرسة المتكلمين أنشط الفئات في وضع قواعد البلاغة وبسط مباحثها، وتعليل إعجاز القرآن وتفسيره بلاغيا، لكنّ أغلب الملاحظات اتجهت نحو نقد لغوي ونحوي جافِ خال من الإبداع والتجديد، على نحو ما جاء في كتاب "الموشّح" للمرزباني، ويبقى الجاحظ خير من مثّل هذه الفترة في كتابه البيان والتبيين من خلال ما رواه عن الأمم الأجنبية كاليونان والهنود والفرس، ويضيف لها سيولا من ملاحظات العرب المعاصرين والقدماء وأساتذة الاعتزال وبلغاء الكتاب.[22] ونلاحظ في هذه المرحلة نشأة البلاغة متصلة بالعلوم الأخرى من خلال الملاحظات التي دُوّنت في ظل العلوم الأخرى كالنحو وغيره، وهذا دليل على عدم تبني قضايا ومسائل مكتملة النضج بل هي شذرات متفرقة في بطون مؤلفات العلوم الأخرى.

ثانيا- مرحلة التداخل المعرفي:

وتمثّل هذه المرحلة التكامل المعرفي بين البلاغة وغيرها من العلوم الأخرى، فبعد أن كانت محصورة في بعض الملاحظات، تطورت إلى مسائل وفصول استوفت حقّها من الدّراسة في ظلّ العلوم الأخرى، مما خلق توازنا معرفيا متكاملا حتّى بين المدارس التي ساهمت في خلق التفاعل والتنافس فيما بينها.

فظهرت في النّصف الثاني من القرن الثالث للهجرة مدرسة الفلاسفة من المسلمين، وهي في أصلها امتداد لمدرسة المتكلمين التي سبقتها قبل ذلك، وقد ساعد في ظهورها كثرة ما نُقل عن اليونان وتأثرهم بالمنطق، مما ساهم في تشكيل معايير بلاغية أساسها الفلسفة اليونانية، فأنشد البحتري يشكو حالهم فقال:

كَلَّفْتُمُونَا حُدُودَ مَنْطِقِكُم * وَالشِّعْرُيُغْنِي عَنْ صِدْقِهِ كَذِبُهْ**

وَلَمْ يَكُن ذُو القُرُوحِ يَلْهَجُ بِال * مَنْطِقِ مَا نَوْعُهُ وَمَا سَبَبُهْ.**[23]

وكان أبو تمّام خير من مثّل طريقة الفلسفة والمنطق في شعره، لكنّ أمثاله تعرّضوا لحملات عنيفة من أصحاب البلاغة العربيّة الخالصة واللغويين المحافظين، ذلك أنّهم بالغوا في التفلسف والتعمّق في معانيهم وأخيلتهم، وتمادوا في استظهار الاصطلاحات الفلسفية، مما جعل "ابن قتيبة" يَنعى عليهم في كتابه "أدب الكاتب" إهمالهم النظر في اللغة وتعلقهم بعلم النجوم والفلسفة والمنطق.[24]

والملاحِظُ لهذه الفترة يشهد تداخلا رهيبا للعلوم العربية وخوضها غمار التوسع شيئا فشيئا في ثنايا المنعطفات البلاغية، فنجد من المتفلسفين كتاب "نقد الشّعر" لقدامة بن جعفر الذي خصص بابا كاملا للمعاني التي يدل عليها الشعر، وجعل منها: التشبيه والنسيب والمقابلة والتقسيم والتتميم والمبالغة والالتفات وغيرها،[25] ومن المتكلمين نجد الرماني في كتابه النكت في إعجاز القرآن الكريم، حيث قسم البلاغة إلى عشرة أقسام فقال: «والبلاغة على عشرة أقسام: الايجاز، التشبيه، الاستعارة، التلاؤم، الفواصل، التجانس، التعريف، التضمين، المبالغة، حسن البيان»،[26] وهذه الأقسام من البلاغة جعلها أبوابا لكتابه، وأخذ بشرحها كما وردت في مقدّمته ترتيبا وايجازا، فكانت كلّ الأبواب لا تتعدّى سبعة وأربعين ورقة من الشرح، مما يجعل كتاب النّكت مقتضبا على أهم ما يمثّل مسائل البلاغة العربيّة، ومستشهدا على ذلك بآيات من القرآن الكريم.

ومن النقديين نجد عيار الشعر لابن طباطبا العلوي، الذي وصف الشعر بأنه كلام منظوم إن عُدل عن جهته مجّته الأسماع، وفسد على الذوق، ونظمه معلوم محدود، فمن صحّ طبعه وذوقه لم يحتج إلى الاستعانة على نظم الشّعر بميزان العروض، ولذلك فهو يرى أنّ من أدوات الشّعر: التوسع في علم اللغة، والبراعة في فهم الإعراب، والرواية لفنون الآداب، والمعرفة بأيام الناس وأنسابهم، ومناقبهم ومثالبهم، والوقوف على مذاهب العرب في تأسيس الشّعر، والتصرف في معانيه، ومعرفة مناهجه الفنية من صفاتهم ومخاطباتهم وحكاياتهم وأمثالهم، والسنن المستدلة منهم سواء بالتعريض أو الإطناب والتقصير، أو بالإطالة والايجاز، وكذلك معرفة لطفها وخلابتها، وعذوبة ألفاظها، وجزالة معانيها وحسن مبانيها، وحلاوة مقاطعها، وايفاء كلّ معنى حظه من العبارة، وإلباسه ما يُشاكله من الألفاظ حتى يبرز في أحسن زيّ وأبهى صورة.[27]

وذِكر هذه الأدوات ماهي في أصلها إلّا مسائل بلاغيّة يتضمنها الأدب بأنواعه شعرا ونثرا، ويتناولها النّقد بالحكم المعياري طبقا لما نصّت عليه السليقة العربيّة الأولى، باعتماد السّمع فهو أبو الملكات، ثمّ وقع ذلك في النّفس باستحسانه أو استهجانه.

ثالثا- مرحلة النضج والانفصال:

وتمثّل هذه المرحلة بلوغ الدّراسات البلاغية أوج نضوجها، ذلك أنّ مرحلة النّضج لا تكون إلّا بالتوسّع في المباحث، مع ضبط حدودها المعرفيّة، وفصولها وأبوابها، مما يسمح بخلق كمّ معرفي هائل تتداخل فيه المسائل بعضها ببعض يؤدّي إلى الانفصال والاستقلال عن المعارف التي كانت تمثّل ارهاصاتها الأوليّة، ويمكن التنويه إلى بعض المصادر المكتوبة على هامش هذه الأعمال التأسيسية للبلاغة منها البلاغة للحرّاني، وقواعد الشّعر لثعلب، والفصاحة للدينوري، والبلاغة والخطابة للمروزي، والمطابق والمجانس لبن الحرون، وتهذيب الفصاحة لأبي سعيد الأصفهاني، وإعجاز القرآن في نظمه وتأليفه للواسطي المعتزلي، وسر الفصاحة لابن سنان الخفاجي وغيرها.

ونجد من الدّارسين المحدثين من يلخّص مراحل وأطوار الدراسات البلاغيّة العربيّة التي مرّت بها، مقسما إياها لأربعة مراحل وهي[28]:

أ- **مرحلة الامتزاج:** وهي المرحلة التي اختلط فيها الدرس البلاغي بغيره من فنون الدّراسة كالتفسير واللغة والأدب وما إليها، وكان طابع هذه المرحلة محاولة الكشف عن الوجوه البيانيّة الكامنة في القرآن بوصفها من وجوه الإعجاز لهذا النّص.

ب- **مرحلة الرصد:** وفيها تم رصد الظواهر والفنون والأنماط البديعيّة والبيانيّة، ومعاينتها كظواهر جديدة ضمن علوم أخرى.

ت- **مرحلة الاكتشاف:** وهي المرحلة التي حاول فيها الباحثون الكشف عن مواطن الجمال في النص الأدبي من خلال تحليله وشرحه شرحا أدبيا.

ث- **مرحلة الاستقلال المعرفي:** وهي المرحلة التي تمّ فيها تحديد الأنماط البلاغية المختلفة واستقلت مباحث الأسلوب ومباحث المجاز واستقلّ علم البديع، وعلم المعاني، وعلم البيان، وأصبحت تمثّل قطبا ثلاثيا لعلم البلاغة، لا يمكن تجاوز حدوده المعرفيّة إلى غيره.

3. البلاغة العربية الحديثة بين التجديد والتقليد

1.3 البلاغة العربيّة الحديثة ومشكلة التجديد:

إنّ الناظر المتأمل في أغوار بلاغة اليوم يدرك أنّ حداثتها لم تكن موجودة لولا وجود حداثة للأدب في مختلف الفنون، فهي مرتبطة بالقلم وما تجود به قرائح أصحابها من تنويع وتجديد في الأساليب، والصور، وما كان ليكون هذا التطور في فنون الأدب لولا تطوّر حياة الإنسان وعصره ومجتمعه وبيئته وحاضره، فهي مرهونة بالحياة العامّة التي يعيشها الأدباء والشّعراء، فما تلهج به ألسنتهم ما هو إلا انعكاس لبيئتهم، وهذا الأدب مثّله حديثا العقاد، وطه حسين، والشدياق، والمنفلوطي، وجبران خليل جبران، وحافظ إبراهيم، والشّابي، وأحمد شوقي، ومي زيادة، وبدر شاكر السيّاب، وغيرهم كثير، ممن أسسوا مدارس أدبية حديثة كان أشهرها أدباء المهجر، والرابطة القلمية.

من هنا استفاقت البلاغة العربيّة الحديثة على أساليب جديدة في الوصف والسّرد والاستعارات والتشبيهات والتمثيلات، والمجازات، «فبعد أن تعدّدت المذاهب الأدبيّة في العصر الحديث وتعدّدت معها في أذهان المعاصرين المفاهيم البيانيّة ودعوا دعواتٍ كثيرة حول البلاغة، دعا البعض إلى الاهتمام بالمضمون وإلى مذهب الالتزام في الأدب، ودعا الآخرون إلى العناية بالشّكل والصّورة، ودعا الزّيّات إلى التّوازن بين هذين العنصرين، ودعا سلامة موسى في كتابه (البلاغة العصريّة) إلى العاميّة وإلى نبذ البلاغة القديمة التي سمّاها بلاغة الانفعال والعاطفة، داعيا إلى ما سمّاه بلاغة النّطق، أي أن يكون المنطق لا اللّغة أساس البلاغة».[29]

ومن هنا تفاوت اهتمام البلاغيين العرب في مباحث البلاغة من تقديم جانبٍ على آخر، وإعطاء الأولويّة لميدان بلاغي أكثر من الآخر وعلى هذا المعنى جاء تعليق أحد النّقّاد إذ قال: «تجد المشرق أو العجم يركّزون أكثر على علم المعاني، وعلم البيان عندهم موضح لعلم المعاني، أمّا البديع فتحسينٌ لهما، وعكس الترتيب، أهل المغرب أو المصريّون، والشّاميّون نزعوا منزعاً فنّياً يجعل البديع هو الأساس وانطوى عليه علما المعاني والبيان».[30]

ونجد من الباحثين[31] من قدّم عرضا لكتابه في مختلف الاتجاهات الحديثة للبلاغة العربيّة، فمع ما عرفته المباحث البلاغية في الغرب من ظهور البلاغة في ثوب علم الأسلوب

الجديد، ظهرت إلى جانبها بلاغة حديثة اعتمدت البلاغة القديمة ونادت بترقيتها لمستوى العلم الصّحيح، وظهر تيار حاول التأسيس لبلاغة عامّة.

أمّا في الأوساط العربيّة حديثاً فبعد أن بُعثت روح البلاغة مع الحركة الإصلاحيّة خصوصا في الأزهر الشّريف على يد الشّيخ "محمد عبده" الّذي اعتمد كتابَيْ "أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز" لعبد القاهر الجرجاني اعتماداً قويا، ظهر الاتجاه الأكاديمي الجامعي على يد "طه حسين" الّذي ربط من جديد البلاغة العربيّة بما علق بها من فلسفة يونانيّة وفكر منطقي زمن اختلاط العرب بالعجم، ونتج عن ظهوره اتّجاهين اثنين: أحدهما مناهض للبلاغة اليونانيّة داعٍ إلى الرّجوع إلى البلاغة القديمة الصّافية التي أنجبها الرّعيل الأوّل من نقّاد العرب ولغويّهم، وآخر معتدل دعا إلى الجمع والتوازن في هذا الأمر، واتجاه أخير تأثّر بالدّراسات الأسلوبيّة الغربيّة التي سبق ذكرها في الحديث عن البلاغة عند المدرسة الغربيّة.

ورغم هذا كلّه بقي على العموم وفي كلّ الأحوال التقييم البلاغي للنّص عرضُه على قاعدة تكاد تكون مشتركة هي: «وضع الكلام في موضعه من طول وإيجاز، وتأدية المعنى أداءً واضحاً بعبارة صحيحة فصيحة، لها في النّفس أثر خلّاب مع ملاءمة كلّ كلام للمقام الّذي يقال فيه، وللمخاطبين به»،[32] وملاحظة احتواء النّص على أساليب العرب البلاغيّة المُطَّرَدَة والتي تُضفي على الشّعر والنّثر صبغة خاصّة، وتجعله في مقام أرفع وأخصّ من لغة التّخاطب العامّة، وتجعل عناصر البلاغة فيه وهي اللّفظ والمعنى وتأليف الألفاظ على نحو يمنحها قوّةً وتأثيراً، ثمّ الدّقّة في اختيار الكلمات والأساليب على حسب مواطن الكلام، وموضوعاته وحال السّامعين والنّزعة النّفسيّة التي تسيطر عليهم،[33] وتكوّن منه عمليّة إبداعية تستحسنها الأسماع، وتلذّها الأذواق، وتطيب بقراءتها النّفوس التي تعرف للكلمة حقّها.

ولقد كثرت الدّراسات البلاغيّة التي أثّرت على النّظريّة والدّرس البلاغي العربي، نظرا لثراء هذه المادّة في فحواها ومحتواها، وبُعدِها في أكثر الأحيان عن تعاقيد المناهج الحديثة الغربيّة في دراسة النّصوص وقرب هذه الطّريق من الفطرة العربيّة والبساطة التي تنشأ عنها النّصوص الأدبيّة، خصوصا وأنّ المناهج الحديثة قد أخفقت في تبسيط علومها

ومواضيعها وأصولها على الأقل بلغة واصطلاح عربيين، ولو فعلت لكانت أبعد عن بيان جماليات الأدب العربي القديم كما بيّنته البلاغة العربيّة النّابعة عنه والصّادرة عن مَعِينه.

2.3 لغة النص الأدبي وقيمته البلاغية:

إنّ البلاغة العربيّة وسيلة وليست غاية لذاتها كما هو معروف، وهذا غاية المنطق، لأنّ الّذي يغوص في ثنايا التقاسيم والأنواع والمصطلحات البلاغية طالبا لتلك المقاييس والمعايير والتعريفات والشواهد فحسب: لم يعرف هذه البلاغة العربيّة، وفاته المقصود من وضع الأسس البلاغية والمباحث المختلفة فيها، لأنها في حقيقة الأمر والواقع تندمج ضمن صفّ العلوم التي تسمّى علوم الآلة التي لا تطلب لذاتها، بل من أجل إيقاعها على النماذج الحيّة في العلوم التي تتصل بها، ونشأت عنها، والتوصّل إلى نتائج وأحكام صحيحة حول نماذج مختلفة تنتمي إلى الجانب الفعلي التطبيقي لتلك العلوم.

واليوم إذ نعرض لدراسة بلاغية تطبيقية نحاول من خلالها كما تقدّم في وظيفة البلاغة أن نتناول أثراً أدبيا ونوقع عليه تلك الأسس البلاغيّة التي أنجبتها تلك القرون السّابقة، وننشأ مقاربة بلاغية لأحد أعاظم الأدباء ونرى موقعه من هذه البلاغة العربيّة وموقع البلاغة من أدبه، ونحاول كشف الخصائص البلاغية الموجودة في إحدى آثاره المنسيّة المغمورة، نحاول أن نعتمد في ذلك كما قال أحد الدّارسين: «نظرة جديدة تعدّ انقلابا في الدّراسة البلاغيّة مؤدَّاها أنّ البلاغة ليست اصطلاحات وتحديدات ورواسم جافّة عميقة، وضروباً من التكلّف والهلوانيات والزّخارف اللّفظيّة، على نحو ما استقرّ في أذهان الطلّاب والمدرّسين، وإنّما هي في الجمال الفنيّ في الأدب، ومجموعة المزايا التي تعرف بها الآثار الأدبيّة الرّاقية».[34]

والأهم من ذلك أنّ النص الأدبي مثلما يحمل خصائص بلاغيّة فإنّه يحمل خصائص لغويّة، تجعل منه مثالا متفرّدا عن باقي النّصوص الأدبيّة الأخرى، وتجعل له مقاما خاصّا دون غيره ممّا كتب في النّحو الّذي كتب فيه، ونقصد بالخصائص اللّغوية تلك الشبكة من الألفاظ والتراكيب التي تؤلّف نظما مقصودا من الكلام، واستعمالها في الدلالات التي تناسب الظروف العامّة للأديب والحال التي يعرضها في أدبه، ومصادر هذا التأليف اللّفظي ونوعه، وشكله، وقيمته، والمقصود من توظيفه، وربطه بمبحث المعاني إذ هو الشقّ المكمّل له والناجم عنه، والصورة المقابلة له في ذهن القارئ.

ولغة الأديب لها خصوصيتها كما هو معروف، فضلاً عن لغة الأدب نفسه، وتستحقّ الدّراسة والنّظر والتّأمّل، ما دام الأديب يكتب بمستوى غير مستوى لغة التخاطب المعروفة، ولقد ضلّ من اعتقد مساواة اللّغة الأدبيّة الراقية للغة العوام: لغة الحاجة والأغراض وهذا أمر بات بديهيا في أذهان الدّارسين ولا يحتاج إلى مجاوبة، وإلّا لصار النّاس كلّهم أدباء، وانتفت خصوصيّة الأدب لأصحابه، وعاب عن وعي النّاس لغة الذوق والمشاعر المخفية.

إنّ اللّغة لغتان –كما يذكر أحد الدّارسين -: «لغة الحياة التي نحياها كلّ يوم، أو لغة الأخذ والعطاء، فالإنسان حيوان اجتماعي ما في ذلك شكٌّ، يقضي مصالحه، ويشبع رغباته، من خلال النّاس وبالنّاس، فهم جميعا بحاجة إلى لغة يتخاطبون بها في أمر معاشهم، وهذه لغة الخطاب؛ أمّا الأخرى فلغة الأدب، ولقد حاول الشاعر الرومانسي "وردزوثWORDSWOFT" أن يوحي إلى النّاس بوحدة اللّغة، لغة الخطاب ولغة الأدب والشّعر، وظلّ يوهم النّاس في مقدّمة ديوانه أنّه يتكلّم في شعره بلغة النّاس ليس غير، إلى أن ردّ عنه "كولردجGOLERIDGE" وعن النّاس هذا الوهم، ولفته إلى الاحتفال الّذي يحتفله الشاعر – ولا بدّ – بلغته، فلغة الشّعر عند "كولردج" أشدّ نسقا وتنظيماً».[35]

إذن فخلاصة القول أنّ اللغة في أصلها مستويات بحسب الوظيفة التي تؤدّيها، فهناك اللغة العامة للحياة التي تؤدي وظيفة اجتماعية، يقتضيها وجوب التواصل بين الناس لقضاء حوائجهم، ولغة الأدب والفنّ الراقي والتي تؤدّي الوظيفة الأدبيّة أو الفنيّة اللّازمة للشّعر والأدب.

وعليه فإنّ العلم يثبت أنّ التداول للغة بين الناس في خطاباتهم اليومية تخضع لنسق معيّن من الألفاظ والمعاني دون غيرها من الأنساق، فلغة الاقتصادي غير لغة السياسي، ولغة الأدب غير لغة التجاري، وهكذا هي الحياة تفرض على الناس نمطا معينا من مستويات اللغة، للتمييز بين مجالات الحياة وتحديد أطرها وما يقتضيه المقام والحال والسيّاق.

وإذا جئنا إلى لغة الأدب نجد أنّ نسق الخطاب الشّعري غير نسق الخاطرة، أو نسق فنّ المقامات والروايات، والأدب المسرحي الموجه للطفل له لغة خاصّة غير التي تستعمل في الأدب المسرحي الذي يعالج قضايا المنفى والمهجر، وباعتبار اختلاف الأنساق اللغوية

اختلفت الأذواق، وتنوعت أساليب التعبير الأدبي، ذلك لأنّ الأدب قبل أن يكون فنا ورسما بلاغيا كان روحا وإحساسا وشوقا، ورسالة يبلغها الأديب إلى القارئ أو السّامع؛ وفي هذا الصدد يقول أحد الدّارسين: «...على أنّ ما يعنينا كدارسي أدب ليس هو اللّغة المعياريّة المتَواضع على سننها الوظيفيّة التي تخضع لمنطق الضرورات الخارجيّة للحياة، وإنّما ما يعنينا هو ذلك المستوى النّوعي للّغة، الّذي يتمثّل في النُظم الكلاميّة والقوليّة الرمزية التصويرية أو التعبيرية التي تنتجها المُخَيّلة الأدبيّة بوجه عامّ».[36]

وهذا الّذي جعل اللّغة الأدبية ذات أنساق وألوان واتّجاهات أشدّ تراصاً وتماسكا من غيرها، ولها نظام مقصود ولون خاصٌ...أو بتعبير آخر: النصّ الأدبي يحمل هذه الخصائص اللّغويّة التي تختلف من أديب إلى آخر ولا تلتقي إلّا في خاصيّة التميّز والارتقاء عن اللّغة العاديّة ودراسة الخصائص اللّغويّة للنص الأدبي تفتح نافذة على الأديب، وثقافته، وقدرته الأدبيّة، كما أنّها تبيّن القيمة الأدبيّة واللّغويّة والتّراثيّة والعلميّة للمكتوب.

إنّ الأدب الّذي ينتجه الكُتَّابُ ما هو إلّا عملية إبداعية تقوم على قاعدة اللّغة من حيث أنّها العنصر الفاعل الّذي يحمل في ثناياه المعاني، والّذي يستغلّه الأديب كموروث عام في يد المخاطبين جميعا فيجعل منه صورة لا تعبّر إلّا عن شخصه وتجربته، فتصير بهذا إرثا خاصّا له مادام هو الذي جعله في نظمه على الوجه الذي تناوله به المتلقي، وهاهنا قد يؤدّي بنا الأمر إلى الحديث عن نظم الكلام تلك النظريّة التي تجعل من البناء الفنّي لنص الأدبي قيمة يحوزها الأديب الكاتب، حيث أنه أبدع هيئة من الألفاظ على نمط فني جميل لم يتسنَّ لغيره: على الأقل في النّصّ بعينه.

وهاهنا تتداخل علاقة الكلمات فيما بينها من حيث أنّها مكوّنات دلاليّة منطوقة ومسموعة أسندت إلى بعضها البعض وكوّنت تلك الصورة والمعاني التي تثبت في ذهن المتلقي بها دون غيرها من النّصوص التي حاولت ابتكار نفس الصورة بسياق آخر، ولو بنفس المكوّنات اللّفظيّة الموظفة من طرف الأديب كما يقول "عبد القاهر الجرجاني" في أسرار البلاغة: «فلو أنّك عمدت إلى بيت شعر أو فصل نثر فعددت كلماته عدّاً كيف جاء واتّفق، وأبطلت نظمه ونظامه الّذي عليه بُني، وفيه أُفرغ المعنى وأجرِيَ، وغيرت ترتيبه الّذي بخصوصيّته أفاد ما أفاد، وبنسقه المخصوص أبان المراد...أخرجته من كمال البيان

إلى محال الهذيان...نعم... وأسقطت نسبته من صاحبه، وقطعت الرحم بينه وبين منشئه، بل أحلت أن يكون له إضافة إلى قائل، ونسب يختصّ له بمتكلّم».[37]

فتأليف الألفاظ ونسبتها إلى بعضها البعض من أخصّ خصائص الأسلوب التي تبيّن عن درجة الأديب.

وتختص لغة الأديب على غيرها من لغات الأدباء بمصطلحات لا يستعملها إلا هو، فهي ألفاظ لها دلالة خاصة بمذهبه ونزعته وثقافته وميوله وعصره، ولذا فإنّ الدّارس لا بدّ له من تفحّص هذا الجانب والحكم على الأديب بما يفيد معلومات أكثر عنه وبما يثري البحث عموما، ويعزّز التحليل البلاغي خصوصا الّذي يعدّ في مقاييس التحليل أهمّ ما دام كفيلا ببيان ميزة الكاتب والمكتوب.

وعلى هذا الأساس فإنّ دراسة الخصائص البلاغية مع مراعاة الخصائص اللّغوية للنصوص الأدبية تفتح أمام الطالب نافذة على الأديب، وتجعله أمام كمٍّ من المعطيات التي تتبلور أمامه وتجعله قادراً على معرفة أبعاد البلاغة العربيّة واللّغة من خلال موضوع واحد مدروس وتهيئ له خبرة قد تجعله يفيد أكثر في دراسات تتعلق بهذا الجانب المهم في الأدب.

4. خاتمة:

يعدّ البحث في مسيرة الدّراسات البلاغية العربيّة وقيمتها الأدبية والمعرفيّة من أهم المواضيع التي قلّما نجد الباحثين يوازنون بين ما يعدّ تأصيلا منهجيا لها وبين ما يعدّ تجديدا لأساليبها وفنونها، إذ هناك حلقة مفرغة بين البلاغة العربيّة التقليدية والبلاغة العربيّة الحديثة، ذلك أنّ الربط بينهما يكاد يأفل ويغفو، عكس الامتداد الذي نجد جسره موصولا بين بلاغة أسلافنا والبلاغة المعاصرة التي يمثّلها علم الأسلوب الغربي النشأة.

ولذا كان لِزاما علينا بيان طبيعة الامتداد التاريخي للدراسات البلاغية العربيّة، ومراحل تطورها ونشأتها، مع إبراز أهم المسائل التي أوجدت تجديدا في لغة الفن والأدب، إذ القيمة البلاغية لا تتجدد بتحديد قواعدها وأركانها، بل تخلق إبداعا بأسلوب الكاتب ومحيطه الاجتماعي الذي يؤثر فيه وفي عواطفه وانفعالاته وكلماته.

وبناءً على ما تم عرضه من مباحث، فقد خلص بحثنا إلى ما يلي:

- نشأت الدّراسات البلاغية في كنف العلوم الأخرى كالنقد والفلسفة والتفسير وغيرها من العلوم.
- كان تحديد مراحل التطور البلاغي مرهونا بلغة الأدب وأساليب الشّعر، أكثر مما ارتبط بمؤسسيها ومن أقاموا لها القواعد وحدّدوا لها القوانين والأساليب.
- إنّ التجديد المعرفي في البلاغة العربيّة كان مرهونا في بدايته بمستوى الكاتب أو الشاعر، ومدى تفننه في التعبير عن مقصوده بحسب قوّة الملكة والحسّ الذوقي المكتسب، ثم ما لبث أن تطور مع التطبيقات البلاغية للدراسات القرآنية وتفسيراتها من حيث المعنى والبيان والبديع.
- إنّ لغة الأدب هي الركيزة الأساسية التي ينبني عليها التجديد في أساليب البلاغة العربيّة، كما أنّ ملكة الأديب هي المعيار الفيصل في خلق الإبداع من عدمه.
- يوجد امتداد طبيعي بين البلاغة العربية التقليدية والبلاغة العربية الحديثة، وذلك باعتبار أنّ المعايير التي تحكم النصوص الأدبية الحديثة هي معايير أصيلة تراثية، كما أنّ للبلاغة الحديثة تأثير على تجديد بعض القواعد والأساليب التي لم تكن موجودة من قبل.

*** *** ***

5. الهوامش:

1. شوقي ضيف: البلاغة تطوروتاريخ، (1965)، دار المعارف (القاهرة)، ص13/10/9.
2. شفيع السيّد: البحث البلاغي عند العرب، (1996)، دار الفكر العربي (مصر)، ص: 15.
3. مصطفى الصاوي الجويني: البلاغة العربيّة تأصيل وتجديد، (1985)، منشأة المعارف (الاسكندرية)، ص 5.
4. الجاحظ: البيان والتبيين، (1998)، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي (القاهرة)، ج1، ص75.
5. محمد كامل الخطيب: نظريّة النقد القسم الأول: من البلاغة إلى النّقد، (2002)، منشورات وزارة الثقافة السوريّة، (دمشق)، ص3.
6. ابن فارس: مقاييس اللغة، (1979)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر (مصر)، ج/1، ص302.
7. التهانوي: شاف اصطلاحات الفنون والعلوم، (1996)، مكتبة لبنان ناشرون (بيروت)، ص343/342.
8. علي الجارم ومصطفى أمين: البلاغة الواضحة، (2008)، ديوان المطبوعات الجامعيّة (وهران)، ص 8.
9. عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، (1983)، دار المسيرة (بيروت)، تحقيق: هـ ريتر، ص3/2.
10. عيسى العاكوب: المفصّل في علوم البلاغة العربيّة، (2000)، منشورات جامعة حلب (مديرية الكتب والمطبوعات الجامعيّة)، ص 26/ 27/ 28/ 29.
11. نفسه: ص 32/31/30.
12. أبو هلال العسكري: الصّناعتين، (1981)، دار الكتب العلمية (بيروت)، تحقيق: مفيد قميحة، ص 9.
13. البلاغة ابن قتيبة: الشعر والشّعراء، (1958)، دار المعارف (القاهرة)، تحقيق: محمد أحمد شاكر، ج/1، ص59.
14. السكاكي: مفتاح العلوم، (1987)، دار الكتب العلمية (بيروت)، تقديم نعيم زرزور، ص ج.
15. عبد المنعم خفاجي وعبد العزيز شرف: البلاغة العربية بين التقليد والتجديد، (1992)، دار الجيل العربي (بيروت)، ص14.
16. السكاكي: مفتاح العلوم، ص5.
17. عبد القادر حسين: المختصر في تاريخ البلاغة، (1982)، دار الشّروق، (بيروت)، ص5.
18. شفيع السيد: البحث البلاغي عند العرب تأصيل وتقويم، (1987)، دار الفكر العربي (القاهرة)، ص14.
19. عبد العزيز عتيق: في تاريخ البلاغة العربيّة، (1985)، دار النهضة العربيّة للطباعة والنشر (بيروت)، ص 50.
20. شوقي ضيف: البلاغة تطوّروتاريخ، ص 378.
21. محمد الصغير بناني: البلاغة العربيّة وأصولها النّظريّة، (دون تاريخ)، دكتوراه دولة، قسم اللغة العربية وآدابها (دون بلد)، ج/1، ص1.
22. شوقي ضيف: البلاغة تطوروتاريخ، ص63/62.
23. نفسه، ص64.
24. نفسه، ص65.
25. قدامة بن جعفر: نقد الشعر، (دون تاريخ)، دار الكتب العلمية، (بيروت)، تحقيق: عبد المنعم خفاجي، ص214، (بتصرف).

26. الرماني: النكت في إعجاز القرآن، (1934)، مكتبة الجامعة المليّة الإسلامية، (دهلي)، تصحيح: عبد العليم، ص1.
27. ابن طباطبا العلوي: عيار الشّعر، (2005)، دار الكتب العلمية (بيروت)، تحقيق: عباس عبد الساتر، ص10.
28. سعد سليمان حمودة: البلاغة العربيّة، (1996م)، دار المعرفة الجامعيّة (مصر)، ص279/ 280.
29. محمد عبد المنعم خفاجي والدكتور عبد العزيز شرف: البلاغة العربيّة بين التقليد والتجديد، ص 14.
30. مصطفى الصاوي الجويني: البلاغة العربيّة تأصيل وتجديد، ص204.
31. البلاغة محمد الصغير بناني: البلاغة العربيّة وأصولها النّظريّة، ج/1، ص2/3/4/5/6/7/8.
32. عبد العزيز عتيق: علم المعاني، (1984)، دار النّهضة العربيّة، (بيروت)، ص10.
33. نفسه، ص11.
34. أحمد أبو حاقة: البلاغة والتحليل الأدبي، (1988)، دار العلم للملايين (بيروت)، ص5.
35. حلمي علي مرزوق: محاضرات في فلسفة البلاغة العربيّة، (1982)، مكتب كريدية إخوان (لبنان)، ص48.
36. عثمان بدري: وظيفة اللغة في الخطاب الروائي الواقعي عند نجيب محفوظ، (2000)، موفم للنشر (الجزائر)، ص14.
37. عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، ص4/3.